حديث العيد

كل عام وأنتم بخير

بهذه العبارة الجميلة نتبادل التهانئ بالأعياد فى بلادنا العربية . أو فى البلاد التى يجمعها اسم « الشرق الأدنى » .

ويسرنى أن ألقاكم من هذه المحطة التى تسمى باسمه . لأنها من جهة تهنئة بلادنا التى اصطلحنا عليها . ولأنها من جهة أخرى أجمل تهنئة عرفناها بين تهانئ الأمم بالأعياد .

فأكثر الأمم تتبادل التهنئة فى أعيادها بتمنى السعادة للمهنئين ... ويوم سعيد أو عام سعيد أو عيد سعيد – هو الاصطلاح الذى يتبادله معظم الغربيين فى أمثال هذه المناسبات ، وهى أمنية جميلة محبوبة .

لكن أمنيتنا نحن الشرقيين أجمل منها وأحب إلينا .

لأن الخير أعظم من السعادة ، وهو يشملها ويحتويها . ولكنها لا تشمله ولا تحتويه .

قد يكون الإنسان سعيدًا وهو مخدوع فى سعادته . كأولئك الناس الذين يحيط بهم الشقاء وهم يجهلونه ويجهلون أنفسهم ويحسبون أنهم سعداء .

وقد يكون الإنسان سعيدًا بما لا يشرفه ولا يجلب السعادة إلى غيره ، كأولئك الأشرار الذين يسعدون بما يشقى الآخرين ، ويرتفعون فى أعين الدهماء وهم حقيقون بالضعة والإسفاف .

وقد يكون الإنسان سعيدًا لأنه فارغ من المتاعب لا يشغل نفسه بواجب ولا مروءة ، ولا يتطلع إلى مجد ولا فضيلة .

فالسعادة جميلة محبوبة ، ولكنها معدن قابل للتزييف والخداع .

أما الخير فهو المعدن الذى لا يقبل تزييفا ولا خداعًا ، ولا يكون خيرًا إلا وهو شىء يختاره الإنسان الفاضل على كل حال .

فمن كان فى خير فهو فى صحة ورضا وراحة ضمير ، وهو سعيد والناس به سعداء .. وهو بعيد من الشر أو الشر منه بعيد ، وهذه هى الأمنية المثلى التى نبحث عن أمنية نتمناها لأحبائنا حين نتبادل التمنيات الحسان فى الأعياد ، فلا نهتدى إلى أمنية أكرم منها ولا أعز وأغلى ، وكل عام إذن وأنتم بخير .

وإن شئتم مرادفًا لها ، تجرى به الألسنة فى بلادنا كذلك .. فكل عام وأنتم طيبون .

* * *

إننى أريد أن أمضى فى الفخر ببلادنا خطوة أخرى . لأننا فى يوم يحسن فيه الفخار .

وأعاهدكم على الفخر الصادق فى كل ما نسوقه من دواعى

الفخار ، لأننا لهذه المناسبة نملك على الأقل بعض دواعيه .

فليست تهنئتنا أجمل التهنئات وكفى ، بل تسميتنا للعيد هى كذلك أجمل التسميات أو أصدق التسميات .

فالأعياد – أو الأيام المحتفل بها – تسمى فى لغات الأمم بما يقابل معنى الطعام أو معنى الاجتماع على الطعام .

وقد أطلق على بعضها اسم (اليوم المقدس) بعد أن عرف الناس معنى التقديس وعبادة الله .

وهى تسمية ناقصة فى دلالتها من بعض الوجوه ...

لأن الناس قد يجتمعون على الطعام ولا يكررون الاحتفال بيوم الاجتماع أو لأن تناول الطعام ضرورة جسدية مطلوبة – ولكنه ليس بأشرف ما تذكره الأمم ويحتفل به بنو الإنسان ، ومن الجائز أن يعرض اليوم المقدس للمؤمنين بقداسته ثم لا يجددون الاحتفال به فى كل موسم من مواسم العام .

أما العيد فهو اليوم الذى يعود أبدًا أو هو يوم السرور المعاد كما فسره بعض المفسرين ، وهذه هى التسمية التى تطابق معناه الصحيح كما يراد فى كل أمة من الأمم ، وإن كانت اللغة العربية هى التى انفردت بأصدق أسمائه بين سائر اللغات .

خطوة أخرى فى طريق المفاخر التى يتاح لنا فى هذه المناسبة أن نعددها ، وقد يساغ الفخر مع التهنئة والتمنى . لأن الفخر سبيل من سبل الهناءة والطموح إلى الآمال .

أريد أن أخطو فى طريق المفاخر هذه الخطوة الأخرى .

بل لابد لى من التقدم بها لأنها تفضى بنا إلى لباب الموضوع حين يكون الموضوع هو التهنئة بالعيد والكلام على الأعياد .

تهنئتنا أجمل التهنئات ، وتسميتنا أصدق التسميات ، وحكمة العيد عندنا أكرم الحكم . إذا ذهبنا نبحث عن حكم الأعياد الدينية عند جميع الأمم من قديم العصور .

فالأيام الممتازة عند الأمم قديمة إلى أقصى مدى القدم المعروف فى التاريخ .

قد ورد ذكرها فى الآثار المصرية العريقة ، وورد ذكرها فى الياذة هوميروس اليونانية ، وذكرت أيام منها فى تاريخ الفرس الأقدمين ، ولم تعرف أمة واحدة خلا تاريخها من يوم ممتاز تحتفل به وترتقب عودته حيناً بعد حين .

وتدور هذه الأيام الممتازة حول أسباب كثيرة ، متعددة الغرض والدلالة ، ولكنها قد تجتمع آخر الأمر فى ثلاثة أغراض شاملة . وهى الاحتفال بمواسم الزرع والحصد ، أو الاحتفال بذكرى الأسلاف المعبودين ، أو الاحتفال بملاهى البطالة وأوقات الفراغ .

وقد تتكرر هذه الأعياد فى كل عام أو فى كل شهر ، ولكنها تقترن جميعا بمناسبات الطعام والشراب وما يجمعه الزارع من الثمرات والأعناب التى تصلح للطعام والشراب .

من تلك الأيام يوم وفاء النيل عند قدماء المصريين ، وقد زعم بعض المؤرخين أنهم كانوا يختمون حفلات اليوم بحفلة يقذفون فيها بعروس إلى النيل ، وهى فتاة عذراء يختارها الكهنة بما ينتحلونه لها من الأوصاف .. والقول الراجح أنها كانت عروسًا من الطين يرمزون بها إلى زواج الأرض بالماء وما ينجبه هذا الزواج من الثمرات والبركات .

ومن تلك الأيام يوم المهرجان عند الفرس الأقدمين وهو اليوم الذى اقتبس العرب عادة الاحتفال به وقيل إن المأمون قال فيه ...

صل الندمان يوم المهرجان بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسروانى عتيق فإن العيد عيد خسروانى

ومنها يوم (رام) الذى قال فيه أبو نواس :

اسقنا إن يومنا يوم رام ولرام فضل على الأيام
من شراب ألذ من نظر المعشو ق فى وجه عاشق بابتسام

وكان الفرس يحتفلون بيوم رام هذا فى اليوم الحادى والعشرين من كل شهر ويتخذونه مناسبة للمتعة بالراحة والفراغ .

وقد تقدم أن معنى كلمة العيد فى اللغات الأوربية يرجع إلى المائدة أو الاجتماع على الطعام . ولكن اعتبار العيد بهذا المعنى كان عادة الأمم قديمًا من غربيين وشرقيين . وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة التاريخية فى سورة المائدة حيث جاء فيها :

(وقال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

فالأعياد على هذا قد نشأت جسدية فى خدمة الأجساد ، وقد اشتقت أسماءها أو مسمياتها من الولائم والأطعمة ، ولم تكن لها حكمة ترتفع بالإنسان إلى ما فوق الطمع فى الرخاء ووفرة الطعام والشراب . ويسرى ذلك حتى على الأعياد التى كانت تقام لإحياء ذكرى الأسلاف ، فإنهم كانوا يتوسلون بها إلى أمثال هذه الأغراض .

أما العيد فى الإسلام فهو على نقيض ذلك يوم يتصل بخلائق النفس ولا ينحصر فى مطالب الجسد . وكلا العيدين - عيد الصيام وعيد الضحية والفداء - هو يوم الاحتفال بانتصار الإنسان على مطالبه الدنيا أو يوم الإيمان بالتضحية والصبر على المجهود .

ومن عجائب الاتفاق أن هذه الأعياد تناسبها الشهور القمرية التى تقترن بمواعيدها .. لأنها شىء يمتزج بأطوار النفس ولا يتوقف على أدوار الفصول ومواقيت الأنهار . فتعود إلينا فى الصيف كما تعود فى الشتاء ، وتقبل والأرض خالية من الزرع كما تقبل والأرض مزهرة خضراء .

فإذا انقضى شهر رمضان فالمسلم يحتفل فى عيده بصفتين من

صفات النفس الإنسانية التى تقوم عليها قواعد الأخلاق ، وهما الإرادة والتغلب على العادات . فهو يحتفل به لأنه استطاع أن يحد من شهوة المأكل والمشرب لا لأنه متربص لفرصة الامتلاء والارتواء ، وهو يحتفل به لأنه اقتدر على تغيير عاداته فى ألزم ضروراته ... والمرء فى قبضة العادات آلة من الآلات .

وإذا كان أناس من المسلمين - كثيرون أو قليلون - يخرجون بالصيام عن هذه الحكمة - فمعناه الأصيل هو معناه الذى لا يضيره انحراف الناس عن سوائه ... لأن الطب لا يضيره إهمال المريض أن يتعاطى الدواء .

أما العيد الكبير فهو عيد الفداء أو هو موسم فى كل سنة يعلم الناس أن يبذلوا بعض ما لهم بالتضحية ، ويبذلوا بعض راحتهم بالسفر والاغتراب ، ليتعلموا أن الفداء أدب من آداب الروح ، وأن خسارة الضحية رجحان فى ميزان الحساب .

ويحق للمسلم أن يفخر بحكمة هذين العيدين كلما ذكرت كلمة الأعياد ، وأنه لأحق بالفخر كلما وفق بين عمله وبين هذه الحكمة ، وجعل العيدين درسين خالدين يستفيد من أحدهما فضيلة الإرادة ، ويستفيد من الآخر فضيلة الفداء .

إننا افتخرنا بأعيادنا وافتخرنا بتهنئتنا وافتخرنا بأسمائها ، ومن حقنا - بل من واجبنا - أن نفخر بأعمالنا فيها أو بأعمالنا فى سائر أيامنا كما تهدينا إليها حكمة هذه الأعياد .

وإن الأعياد بحمد الله لغنية عن الإسهاب فى العظات لأنها تهدينا إلى عظاتها بأقرب ظواهرها : وهى الاشتراك فى فرح واحد وفكرة واحدة .

وهل يشترك الناس فى فرح واحد وهم متقاطعون ؟ وهل يشتركون فى فرح واحد ومنهم الغنى الذى يجمع أمة أمة والبائس الذى يعز عليه قوت يوم ؟

إن الحزن المشارك كما قيل نصف حزن ، وإن السرور المشارك ولا ريب سروران ضعفان أو أضعاف مضاعفة ، وأن هذا العيد عيد أمم لا عيد فرد ولا عيد أسرة . فمن استطاع أن يسعد فيه الناس معه فهو الرابح بهذه المشاركة ، ومن تفرد فيه بنعمته فهو الخاسر بهذه الأثرة . وأمنيتى لكم فى الختام كتهنئتى لكم فى الابتداء .. الخير والطيبة لكم أجمعين .. فكل عام وأنتم بخير وكل عام وأنتم طيبون ..